15 النجوى طريق البطالة

رائع هو فقه الفاروق حقًّا.

فالحكم العمرية، في إجمال قواعـد الإيـمان ومـوازين الإسـلام وأصـول الدعوة، هي أوضح وأحسن تفسير شامل للقرآن الكريم ولحـديث رسـول الله ﷺ ،ويشعر الفاحص لأقواله رضي الله عنه أنها نتاج تأمل، صنف عمر خلالـه النصوص التفصيلية وجزئيـات الـشريعة والعقيـدة إلى مجـاميع متقاربـة في معانيها وعللها، وألحق كل حكم بنظيره وشبيهه، ثم رأى من بعـدُ القاسـم المشترك الذي ينظم كل مجموعة، فاستل من ذاك القاسم قاعدة أو ميزانًـا أو أصلا.

إنه نمط من الاجتهاد الاستنباطي الذي لم يفصح عن خطواته عمـر، ولم يسجل مراحله أحد، ولكن مـن يعـاني التفقـه يـدرك أنـه مـن المفترضـات البديهية التي كانت سابقة حتما لنطـق الراشـد الثـاني رضي الله عنه بـما نطـق، فـإن الحكمة تنقدح في قلبه في ساعة تفكر، فتظل تتقلب وتجيش في صدره مـدة، حتى تصادف ذروة خشوع في إحدى صلواته، فـيرجح عنـده صـوابها مـع ذاك التصاعد، فيدعها بعد انفلاته مـن صـلاته موعظـة سـائرة عـلى مـدى الأجيال لأولي الاعتبار.

كل فقهه وفعله كان كذلك رضي الله عنه ، حتى أنه كان يخطط لجيوش الفتـوح وهو في صلاته، كما أخبر عنه نفسه.

ولذلك كانت الحكمة العمرية مرقاة المتفقه. ولذلك كان السابق.

ولذلك أيضًا... كان المنتصر...

الفتن بقية جاهلية

ومقالته:

(إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية).

مقالة جمعت كل ضروب فقهه ذاك، فهي قاعدة إيمانية إن شئت، وهي ميزان، كما أنها أصل من أصل الدعوة أصيل.

لابد من معرفة الجاهلية.

يسميها الجاهلية، متابعة للقرآن ولرسول الله ﷺ وهي الشر كذلك، والشرك، صغيرًا كان أم كبيرًا، وحكم الطاغوت، وهي المعاصي غير المكفرة صاحبها أيضًا.

كل ذلك يعنيه عمر.

ويشهد لنا في أنها المعاصي أيضًا، لممها وكبائرها، قول رسول الله ﷺ لأبي ذر حين عير بلالا بأمه السوداء:

(إنك امرؤ فيك جاهلية).

فسماها جاهلية، لأنها بقية باقية من خلق الجاهلية وإن لم تنقل أبا ذر وراء حائط الإسلام.

قال البخاري:

(المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي: إنك امرؤ فيك جاهلية)[1].

قال ابن حجر:

---

(1) صحيح البخاري ١/ ١٥.

(أي أن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخـلاق الجاهلية) [1].

وهكذا توافق رأي عمر مع فعل حذيفة بن اليمان في سؤال الرسـول ﷺ عن الشر والفتن مما عرفناه عنه حين رؤيتنا الماضـية لـدور الـصخب في إجلاء الخير. والفتنة معصية، فهي جاهلية وإن لم تسحب صفة الكفـر عـلى مقارفها، ولابد من معرفتنا بها، وتفقيه الـدعاة بأوصـافها وعلاجهـا، وإلا نقض الإسلام عروة بعد عروة.

بل الحقيقة أن التفرق والخلاف كان من أبـرز ظـواهر جاهليـة العـرب، وأولى المعاصي بتطرق فقه الدعوة لها.

وذلك مسوغ جديد، عمري النسبة، يشجع بحوثنا عـلى فـضح أباطيـل الفتن والمفتَنين.

والفتن أنواع وضروب، منها التي في العقيـدة، ومنهـا التـي في التعامـل والسلوك والحلال والحرام ، ومنها الطفيفة، ومنها الغليظـة. ونحـن نـتعلم منها ها هنا فتن التعامل الجماعي التي تطرأ عـلى المجموعـة المتعاهـدة عـلى الدعوة إلى الله، الساعية لإقامة حكم الله، أو الحاكمة به.

يجب أن نعرف جاهلية الخلاف وخلع الطاعة ونكث العهد والتخـذيل، وإلا نقضت وهدمت عرى الدعوة عروة إثر عـروة، وتقاعـد الـدعاة عـن العمل فوجا تلو فوج، وارتفعت معاني الأخوة من ساحتهم.

قال ابن تيمية رحمه الله :

(وهو كما قال عمر ؛ فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله.

---

(1) فتح الباري ١/ ٩٢.

ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره ، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهلـه مـا عنـد الخبـير بهم، ولهذا يوجد عند الخبير بالشر وأسبابه - إذا كان حسن القـصد عنـده- من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة ﷺ أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم ؛ لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للـشر، لمـا علمـوه مـن حـسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي)[1].

وعي يفضح المخادع

ومن حكمة عمر في هذا الباب أيضًا قوله :

(لست بخبٍّ، ولا يخدعني الخبُّ).

والخب، فتح الخاء وكسرها، هـو: المخـادع الخبيـث الـذي يـسعى بـين الناس بالفساد.

وهذه الدعوة مباركة، تربي أبناءها على أن لا يكونوا أخبابا، بـل تؤلـف أرواحهم، وتريهم أنوار الفطنة، وتعلمهم النية الـصالحة والقـول الطيـب، وتحذرهم سهام الشيطان، والتأويل المستدرج، ثـم توجـه الـرهط المخطـئ منهم نحو تربية تستدرك.

ولكنها دعوة مفتحة الأبواب، قد يختلس الخب فرصة، فيلج عـلى حـين غفلة من الحارس، ويتخفى دهرًا.

ولذلك وجب على هـذه الـدعوة المباركـة أن تـربي أبناءهـا أيـضا عـلى اكتشاف مخادعة الخب، كل الخب، وتصف لهم لحن قوله، وظلمات دروبـه، وخروق استدلالاته.

---

(1) مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٠١.

(فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به) [1].

قالها ابن تيمية ثانية .

ولقد كان الجدل، والكذبة التي تطوف الآفاق، من آخر أساليب الأخباب التي فضحتها أنوارنا، ومازالت الفطنة، العمرية السمت، تتوهج لتؤنس مسيرتك بلألأة ألوان طيف.

النور الثالث عشر، من شمس :ترك النجوى

فإن مجالس المؤمنين لم تعرف إلا زيادة الإيمان لها هدفا، وكان ابن رواحة يأخذ بيد أبي الدرداء، رضي الله عنهما ، ويقول: **(تعال نؤمن ساعة)**[2]، فيتذاكران أمر الإيمان، ويتعرفان على مسالك التوبة، ويتآمران بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

وكان عمر بن عبد العزيز يأمر أبا بكر بن عمرو بن حزم، رحمهما الله، بالجلوس للتعليم، ويقول له:

(ولتجلسوا، حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا) [3].

وجعل أحمد بن أبي الحواري الدمشقي المجالسة دواء قسوة القلب، فقال:

(إذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين، واصحب الزاهدين).

---

(1) مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٠٢.

(2) كتاب الزهد لابن المبارك / ٤٩٠.

(3) صحيح البخاري ١/ ٣٥.

obeikandl.com

فمجالس المؤمن عزيزة، ولا ينبغي أن يجلس إلا بنية أن يؤمن ساعة ثم يقوم، متداولا آية أو حديثا أو وصية حكيم من صالح المؤمنين، وليس من حقه أن يميل بالجالسين معه إلى نقد اجتهادات قادته بما يهاب أن يذكره لهم صريحا.

وكذلك غدوات المؤمنين وروحاتهم، فإنها ثمينة مثل مجالسهم، ومن لم يجد عند الذين حوله فقها فإن عليه أن يسيح طلبا له، كما كان التابعي علقمة بن قيس النخعي الكوفي يقول لأصحابه:

(امشوا بنا نزدد إيمانًا، يعني يتفقهون).

أو يذهب إلى من يرجو أن يلين له قلبه إذا ألهاه الصفق بالأسواق وأحاديث الرواتب وفرق الأسعار، كما كان التابعين ميمون بن مهران يذهب إلى سيد التابعين الحسن البصري ويطرق بابه ويقول له:

(يا أبا سعيد: قد آنست من قلبي غلاظة ؛ فاستلن لي منه).

فإن لم يجد الصاحب الجليس الصالح، والمداوي الملين، فإن أمامه خلوة ساعة تذيقه حقيقة اللذة، فإنه **(ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل)** كما يقول التابعي مسلم بن يسار.

ثم أمامه المحراب، يذكره به التابعي بكر بن عبد الله المزني ويتساءل:

(من مثلك يا ابن آدم؟

خُلِّي بينك وبين المحراب ؛ تدخل منه إذا شئت على ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان).

الاجتهاد لا ينمو في الجيوب

فأما منصف نفسه فيطلب ذلك، من مجلس أو رحلة أو خلوة لبث بمحراب، يأنس بمخالطة من شاء من أفراد جماعة الإيمان، أو يقتدي بما يروى له من فعل المهتدين.

وأما المشرف على ضلالة، فإنه يتوارى مع صحب له عن العيون، ويكتم سره عن الجماعة، ويبثه لمن يهواه، فيؤز بعضهم الحمية النفسية في البعض الآخر، فيكون حنق، فتثبيط، فتسويغ لا يبرأ من تدليس، فإذا هو افتتان.

تلك التي عرفها عمر بن عبد العزيز فقال:

(ما انتجي قوم في دينهم دون جماعتهم إلا كانوا على تأسيس ضلالة) [1].

وهذه هي بداية كل بدعة في تاريخ المسلمين، تبدأ بالنجوى، ثم يكون الاستدراج.

فالنجوى دون الجماعة في المفاهيم التي هي من الدين، أو في خلع الطاعة الشرعية التي هي من الدين أيضًا، والتي بسببها سمى الخوارج الخالعون للطاعة مبتدعة، يقرن ذكرهم بالجهمية والمرجئة، كل ذلك ضلالة داخلة في قول عمر.

ولا تغير النية الصالحة في طبيعة النجوى أو تسحب عليها ذيل الصلاح تبعًا، ولا ادعاء الاجتهاد وطلبه من خلالها، فإن الاجتهاد لا يترعرع سرًّا، لاحتياجه دوما إلى التقويم، وإلى الشهادة له أو عليه من قبل الآخرين، وليس يتاح ذلك في أجواء التناجي المتواري المستخفي الذي يشبه التهامس.

ولقد أظهرت لنا التجارب الكثيرة أن معظم التناجي يؤدي إلى الخروج ونكث البيعة، ولا تتجاوز أن يكون مرحلة أولية للماشي في درب الفتنة، دري أو لم يدر، ولا يتجاوز حجة المتناجي أن تكون هي نفسها حجة الخارج، كلاهما يدعي أنه يريد مصلحة الإسلام، وأنه يمارس ضربا من العبادة، والخطأ يلفهما لفًّا.

---

(1) كتاب الزهد للإمام أحمد/ ٢٩١.

كل الخوارج مخطئ في مقالته وإن تعبد فيما قال واجتهدا

وتقريرات سيد قطب رحمه الله لمجالات النجوى المذمومة في القرآن الكريم تلتقي مع هذا الذي نقول، ويذهب لأبعد ممن يتوهم أن الله تعالى قد ذم النجوى في حياة رسول الله ﷺ فقط، فهو يعقب على الآية الكريمة:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء:١١٤].

فيقول:

(لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى، وهي أن تجتمع طائفة بعيدًا عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبيت أمرًا، وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي ﷺ مسارة إن كان أمرًا شخصيًّا لا يريد أن يشيع عنه في الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة هي ألا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمرًا بليل، وتواجه به الجماعة أمرًا مقررًا من قبل، وتستخفي به عن أعينها، وإن كانت لا تختفي به عن الله، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها.

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة ؛ تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة لشئون الحياة، وكان المجتمع المسلم كله مجتمعا مفتوحًا، تعرض مشكلاته – التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيرها، والتي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن – عرضا عامًّا. وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعا نظيفا طلق الهواء، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره إلا الذين يتآمرون عليه، أو على مبدأ من مبادئه – وهم من المنافقين غالبا- وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع.

وهذه حقيقة تنفعنا ؛ فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة، وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات) [1].

وهكذا يخرج الموفق من ضيق مجلس النجوى إلى رحاب التشاور الواسعة ، وبهجة الإصلاح بين الناس، ابتغاء مرضاة الله، والله نور السماوات والأرض ، فيجعل الله له نورًا جديدًا، يزيد قوة إبصاره، ويشجعه على سرعان الفرار إلى الله، فيمر في محاذاة مصباحه، مصباح هذا النور الجديد، ويلتفت إليه ليحصي فضل الله عليه، فإذا هو:

النور الرابع عشر، المتدلي من ثريا: حمل القلب على استقباح الفتن

فإن المرء مطالب بأن ينكر بقلبه كل أنواع الفتن، وأن يستشعر عيبها، ولو لم يدخل طرفا فيها، فإن الاستحسان يوشك أن يغري صاحبه بالولوج.

لذلك لا يعد أحدنا بريئا من هذه الفتن تمام البراءة إلا بمثل هذا الاستقباح.

---

(1) في ظلال القرآن ٥/ ٢٢٦.

وقديمًا أبى شريح القاضي أن يمزج نبله وفضله بشيء من آثار الفتن، فلبث تسع سنين كاملات معتزلا فتنة القتال أيام أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا ليقاتل عنه ويحكم العراق باسمه، كان شريح خلالهن: (**لا يخبر ولا يستخبر**) مع أن ابن الزبير كان له من التأويل الصادق أكثر من غيره، فقيل لشريح:

(قد سلمت!

قال: فكيف بالهوى) [1].

وكان هواه مع ابن الزبير.

أي أنه كان يتهم نفسه بعدم البراءة وإن لم يشترك في قتال أو يقف خطيبا مؤيدًا، لأن قلبه كان يميل إلى ابن الزبير.

فإذا كان شأن مجرد الميل القلبي كذلك، فمن باب أولى أن تكون موالاة أهل الفتنة، والتصريح بالرضا عن فعلهم، كالدخول في فتنتهم نفسها، أو منزلة قريبة من الدخول، وإن أبقى الراضي لنفسه صورة الوفاء بالبيعة، ولم ينسب نفسه إلى جمهور المفتتنين.

وخلال سرد الإمام أحمد لأوصاف الزاهد وطبقات الزهاد وعظنا موعظة صريحة، أحيا بها فقه الحسن البصري إمام التابعين فروى استفتاء التابعي عبد الواحد بن زيد للحسن:

قال عبد الواحد:

(قلت للحسن: يا أبا سعيد: أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب، إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلب!!

---

(1) طبقات ابن سعد ٦/ ١٤١.

قال: يا ابن أخي كم يد عقرت الناقة؟

قلت: يد واحدة.

قال: أليس قد هلك القوم جميعا برضاهم وتماليهم) [1].

وابن المهلب هذا هو ابن المهلب بـن أبي صـفرة البطـل مبيـد الخـوارج، أعجبته نفسه، وغره ما ورثه من جاه أبيه، فعشق الرئاسة، فأعلن الانفصال عن الدولة الإسلامية الفتية.

فالموالاة كالدخول، لـيس مـن فـرق بيـنهما عنـد رأس فقهـاء التـابعين بإحسان.

وهي كذلك عند الذين بعده، فجعل بعضهم اسـتئناس المـرء وصـحبته للمتخلقين بأخلاق المفتتنين مسوغا لنا لتصنيفنا إياهم معهم. فقال:

* **(دليل وحشتهم: أنسهم بالمستوحشين.**
* **ودليل بطالتهم: صحبتهم للبطالين.**
* **ودليل تخليطهم: صحبتهم للمخلطين).**

فالعمل الإسلامي رحب، كله أجر ومثوبة ونور، ولمثله يبتـسم العاقـل مستبشرًا، فإن استوحش بعض مـن يدعيـه، وعـبس وبـسر، ثـم اسـتأنس بوحشة آخر فإنه شريكه دون ريب.

وهذه الفتن كلها بطالة وسلبيات، وقعود عن العمل وانزواء، وانحـدار تدريجي نحو الركود، ثم سبات وغطـيط، وصـاحب أصـحابها مـنهم دون ريب.

---

(1) كتاب الزهد للإمام أحمد/ ٢٨٩.

وهي كلها اسـتعارات، وترقيعـات، ومـزج للباطـل بـالحق، وتـدخين وتخليط، ومن رضي أن يقعد بباب دكـان صـاحبه الحـداد، لتطربـه الأنغـام النشاز التي تبعثها مطارق الحدادين، فلا يعجبن إن ظنه الناس حدادًا.

* * *

obeikandl.com

16 اللهـب البـــارد

مهما عصفت الفتن وآذت، فإن إجالـة سريعـةً لأبـصارنا في محـيط هـذا الجيل الموفق من الدعاة تترك بسرعة أثرًا من السكينة في قلوبنا تصغر أشباح المفتتنين فيها، بل تدعها بددًا، حتى تخلو من الرهبة لهم تمامًا.

هذا ما كان مرارًا، كلما شيكت الـدعوة بـشوكة مـن صـاحب هـوى أو عاشق رياسة، وهذا ما سيكون ويستمر، مـا بقيـت هـذه المعـادن البيـضاء النقية التي تشتد غيرتها على دعوتهـا، فتبـادر إلى إنكـار الفتنـة عـلى أهلهـا، وتتناوش الاستدراك من قريب، من حيـث يـؤشر لهـا المخـضرمون نقـاط وجوده على خارطة التجارب العملية لتـاريخ العمـل الإسـلامي، القـديم والحاضر.

فهذه الخارطة التي لخصت نتائج المسح الشامل لآثار الخطـط المرحليـة، وأوجزت الخبر اليقين المعلل لمصائر من التحق بالركب عـلى مـدار الـسنين فثبت ونجح، أو غوي فانكبح، هي من أثمن ما يحوزه الداعية المتفقه طالب الوعي، ومن أبرك العوامل التي تضاعف شدة غيرتـه، وتميـزه عـن المـسلم الفرد الذي يلتمس المصالح للإسـلام مـن خـلال دائرتـه الـضيقة وتجربتـه المحدودة.

مجالس الساعة الإيمانية

ولقد اقترنت إشارات الخطر الحمراء التي رسمتها التجربة على الطريـق الانتجائي القائد إلى مفاوز البطالة بإشارات سلامة واضـحات تـبرز أهميـة المجلس والمعية والخطوات المشتركة إلى مناجم الخير.

علامات عتيدة وضـعها الـصحابة والتـابعون عـلى خارطـة التجريـب القيمة.

* اجلس بنا نؤمن ساعة.
* تعال نؤمن ساعة.
* امشوا بنا نزدد إيمانًا.
* اجلسوا، حتى يعلم من لا يعلم.
* آنست غلظة، فألن لي قلب.
* إلى مناجاة في المحراب.

لافتات تطلب منك الدخول.

أو هي هتافات.

سمها كيفما شئت، لكنها قاعدة في العمـل التربـوي غنيـة عـن الاسـم، تفـرض نفـسها فرضـا عـلى أجيـال الـسائرين في دروب تـأليف الأرواح، تذكرهم بأن لـزوم مجتمعنـا الخـاص، والعـيش في أجـواء الـدعاة الجماعيـة يكفلان حلولا أكيدة للكثير من مشكلات العمل، ابتداء بـالفتور الطـارئ، وانتهاء بالفتن.

فالداعية سائح جوال، يشغف ارتياد الربوع الخالية حبًّا، لكنـه يجـب أن يأوي إلى أجواء الإخاء الإيماني، وركنها الشديد، ليستروح قلبه، ويستـشعر السكينة في ظلال جماعية، كما تعود الأطيار إلى وكناتها ومحط سربها مـع كـل مغيب لتسكن إلى أشكالها.

لذلك يجب أن يسود الجماعة عرف بـالغ الحـساسية يـستنكر التنـاجي، ويتعاهد (**مجالس الساعة الإيمانية**)، بالإدامة والإحياء، وتعميرهـا بالفوائـد

المناسبة لكل مستوى، بحيث يجد فيها القديم المتوغل نوعًا من الأنس والسلوة يقارب ما يجده الناشئ المبتدئ.

مجالسهم مثل الرياض أنيقة لقد طاب منها الريح واللون والطعم

وعلى مجالس الساعة الإيمانية هذه تعول الخطة التربوية، وعلى سمتها الجدي النظامي يجب أن نحافظ، وأن لا نسمح لذي الاجتهاد الغريب أو المخالف المنازع في الرئاسة باستغلالها لمسارَّة ونجو وتثبيط.

هجر الكلام الرديء

وقد أرتنا الأيام مجرد مثل هذا الكلام في ذي النجوى لا يقيد المخالف عن الاسترسال في هواه ومحاولة الخلوة مع العاملين ليطلب نصرتهم له، ولكن العنصر الفعال في إبطال النجوات وتضييق المجال عليها إنما هو الداعية الثقة النبه ؛ بأن يقوم بدور السكوت عن التكلم إلى غيره وعدم إشاعة ما نوجي به ، ألا يعلق المعنى المعيب في قلب ساذج، أو جديد لم يخبر الأمور بعد...

وهي وصية سفيان الثوري في التحذير من رواية المعاني المبتدعة ولو على سبيل الإخبار إذا لم يعلمها أحد، إذ أرشد إلى وجوب كبتها وحصرها فقال:

(من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقيها في قلوبهم).

والبدع بدع عمل كما هي بدع اعتقاد، وكلام أهل الفتن يختلط بشيء كثير من هذه البدع التي حذر منها الثوري، وأسلوبهم بحد ذاته بدعة غليظة.

فمن سمع أيام الفتن نوع تشكيك أو اتهام أو طعن يفوه به عاص، وعلم أن غيره من الثقات البعيدين عن العصيان لم يسمعوا بهذا التشكيك

وأنهم في عافية منه، فليستره عنهم، فإنه لا يدري ما عسى أن يعلق بقلوب بعضهم من هذا التشكيك بإغراء الشيطان، وليوصل الخبر إلى أميره فحسب، أما إخوانه فيفتح لهم نافذة يستمتعون من خلالها بالنظر إلى بزوغ فجر جديد يبشر يقرب انتشار:

النور الخامس عشر، الذي يوقده:

علمك بأن الله لا يصلح عمل المفسدين

كما كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى أحد ولاته وصية جامعة من دون تطويل فقال:

(أما بعد: فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين)[1].

وهي جملة واحدة موجزة جمعت الخير من أطرافه، ووضعتك أمام حقيقة فاصلة.

فإذا كان أمر الله هو النافذ في هذه الحياة، وقد كتب الله على نفسه أنه لا يصلح عمل المفسدين، ولا يحب كل خوان أثيم، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، فلم خداع النفس؟ ولم تمنيتها بانتصار مبني على أوليات ومقدمات فاسدة بينة العوار، صاحبها أدرى الناس باعوجاجها؟

إن هذا الاستشعار بحتمية قدر الله الذي وعد به، إنما هو نور ساطع يحفف جرأة الجريء على مقارنة الافتتان إذا تذكر به حين يجالسه داعية فتنة في ظلمة يسوغ له المشاركة فيما هو فيه، والمؤمن لا يزني ساعة يزني وهو مؤمن، ولا يسرق وهو مؤمن، وكذلك لا ينكث بيعة وهو مؤمن.

كما أنه قد يقف على باب الإثم فيذكره مذكر بالله فيرجع، كما في حديث

(1) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧.

البخاري عن المرأة التي أراد ابن عمها السوء معها فذكرته الله، فعف بعدما أوشك وشارف، فوهبه الله بعد دهر استجابة منه لدعائه، ورفع الصخرة التي سدت فتحة الكهف عليه.

وهكذا كهوف التخذيل والإرجاف، قد يجد المرء نفسه حبيسا فيها على غفلة من نفسه، فيدعو بدعاء عمار: نعوذ بالله من الفتن . فتتدحرج صخرة الأوهام عن باب سجنه، ويتنفس الصعداء، ويعود إلى عرصات العمل الفسيحة.

وهذا الباب من أبواب التقوى في الاستسلام لقدر الله بلزوم أمر الله ونهيه، ودلالة ما يحبه الله وما يكرهه، جد مفيد في اتقاء الخلاف خاصة والعزوف عن التفكير بكيد وخديعة.

وضمانته العامة: الإسراع إلى الإصلاح الذي أرشدك إلى سفيان بن عيينة حين قال:

(من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس) [1].

فصلح المرء مع الله، بحيث لا يكون مؤذنا بحرب منه، ولا مكروها عنده طريق لصلحه مع الناس وصلح الناس معه، في رحاب أخوية، بلا خلاف، ولا تطاول، ولا تحديات.

كما أن صلحه هذا مع الله هو من باب ثان بداية توارد الخواطر الإيجابية على قلبه، وتزاحم الأفكار الجدية فيه، التي تخرجه من سكون الكسل وإيثار الدعة، إلى طلب لذة التضحية وركوب المتاعب، فتتجدد له حالة كان هارون الرشيد، الخليفة الحاج الغازي، على مثلها، فاستوقف جمالها كلثوم بن عمرو العتابي، حفيد صاحب المعلقة سَمِيِّه، فقال يمدحه:

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ١٠.

مستنبط عزمات القلب مـن فكـر ... مـــا بيـــنهن وبـــين الله معمـــور

فعزمة القلب الخيِّرة بنت فكرة تستمد جرأتها من العمران الـذي شـيده صاحبها بينه وبين الله.

عمران بمعاني التوحيد لله، والتوكل عليـه، والإخبـات إليـه، والخـوف منه، ورجاء نيل رضوانه.

وعمران آخـر لـدور الأنـصار الجـدد، في صـحراء جاهليـة الكفـر، أو صحراء جاهلية المعاصي، بتربيته لهم، وإسكانه إياهم فيها ليوقدوا إذا طـال على القوافل مداها، فتستأنس بنارهم حينا، وتزول وحشتها، وتلبث سائرة في صحبتها، حتى يبدو لها:

النور السادس عشر، الهادي إلى: إدانة السوء الظاهر

فإن العمل الخاطئ لا يصح معه ادعاء الصلاح، ولا تسوغه النية الحـسنة، والضرر يزال ويتجنب ولو لم يقصد فاعله الإساءة، وكل ناو فله ما نوى.

فمن الدعاة أناس يريدون الخير للدعوة، لكـنهم ورثـوا سـذاجة أصـحاب السفينة الذين قص علينا رسول الله ﷺ خبرهم فقال، كما في البخاري:

(مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سـفينة، فـصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي بأسـفلها يمـرون بالماء على الذين في أعلاهـا، فتـأذوا بـه، فأخـذ فأسًـا، فجعـل ينقـر أسـفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي، ولابد من المـاء!! فـإن أخـذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم)[1].

(1) صحيح البخاري ٣/ ٢٢٥.

وفي لفظ ابن المبارك أن النعمان بـن بـشير رضي الله عنه كـان إذا أراد سرد هـذا الحديث يقول قبله:

(يا أيها الناس: خذوا على أيدي سفهائكم).

فإذا سرده عاد فقال:

(خذوا على أيدي سفائهكم قبل أن تهلكوا) [1].

ولقد صدق الصادق المصدوق ﷺ وصدق الـنعمان، فكـم مـن مخلـص جاهل يسلك سبيل صاحب الفأس هذا في سفينة الدعوة؟

ذاك حمل فأسًا... وصاحبنا يحمل اللسان.

إنه يهدم ويشكك ويثبط ويفرق ويعصي، كل ذلك بدعاوى حسن النيـة والنقد الذاتي.

إنه يجهل أن القانون على الـسفينة إنـما هـو قـانون العاقبـة دون غيرهـا، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه، بل على الـشروع فيـه، بـل توجيـه النية إليه، فلا حرية هنا في عمل يفسد السفينة ما دامت ملججة في بحرهـا، سائرة إلى غايتها.

إن كلمـة **(الخـرق)** لا تحمـل في الـسفينة معناهـا الأرضي، بـل معناهـا البحري، فهناك لفظة **(أصغر خرق)** ليس لها إلا معنـى **(أوسـع قـبر)**... في قاع المحيط المظلم، لو ترك هذا الخرق الصغير وشأنه.

وكذا حسن النية، إنه لا يحمل عندنا في علاقاتنا معناه الأخـروي الـذي يحاسب الله بموجبه عباده، فالإفساد واحد حتى وإن كان بنية حسنة.

أفما رأيت حالة هذه الطائفة التي في **(الأسفل)** تعمل لرحمـة مـن هـم في **(الأعلى)**؟

---

(1) كتاب الزهد لابن المبارك/ ٤٧٥.

إنها قصة القواعد الساذجة مع القيادات العاملة:

عاطفة ملتهبة لكنها باردة.

ومشاعر صادقة لكنها كاذبة.

ورحمة خالصة لكنها مهلكة.

إنهم المصلحون إصلاحا مخروقًا [1].

إمامة الدعوة كإمامة الصلاة

إن تكوين جبهات المعارضة لا تعرفها أخلاق الإسلام، ولا يستنزل الشيطان بهذه الذريعة إلا صاحب الفقه الضعيف.

ونهج إشاعة النقد نهج باطل، لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا سلكه داعية ذكر عنه الثبات على العمل بعد إتيانه.

إنه طريق إلى الفرقة والتباغض.

وإن العمل الإسلامي قائم على معنى عبادي نحتسب فيه الأجر عند الله ؛ كقيام المصلين مع إمامهم في الصلاة يحتسبون فيه الأجر ويؤدون به عبادة مفروضة، يحرصون على إجادة الإمام لإمامته ويعينونه على ذلك، فإذا أخطأ نبهوه برفق يصلح ما أخطأ فيه، لا تشهير معه.

وقيادة الدعوات ليست كراسي حكم يتنازع عليها كما تتنازع الأحزاب الأرضية، ولكنها مسئولية ضخمة، وإمامة في دين، كالإمامة في الصلاة.

وللشيطان مداخل كثيرة جدًّا ودقيقة للغاية، قد يقع فيها الداعية، فيختلط عليه التناصح الصافي مع التنابذ العدائي، والحرص على الدعوة مع

(1) اقتباسات من وحي القلم ٣/ ٧.

الحرص على أهواء النفس، إلى غير ذلك من الاختلاطات التي يعرفها من أطال التأمل في دقائق النفس وخلجات الأفئدة، والعاصم من كل ذلك الالتزام بقواعد العمل الجماعي، وأن يكون النصح للمنصوح في السر أحب إليه في العلن، وأن تكون استقامة المسئول أحب إليه من وقوعه في الخطأ، وأن يود لو أن غيره كفاه مئونة النصح، فهذه ونحوها من علامات نجاة الداعية من التورط في حبائل الشيطان.

معانٍ أدركها السلف، فإنه لما روي قول شداد بن أوس رضي الله عنه : **(يا بقايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم: الرياء، والشهوة الخفية).**

(قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟قال: حب الرياسة).

(فهي خفية تخفى عن الناس، وكثيرًا ما تخفى على صاحبها) [1].

فأحدهم ينازع ويخاصم تعبدًا وتقربا إلى الله في ظنه، ولا يدري أن حسن مقصده لا يغير من حقيقة التنازع شيئا.

سيماء السوء واضحة

فإذا كانت الجماعة مطالبة بإزالة الضرر الذي يقع من قبل المخلصين أحيانًا على سذاجة، أو بشهوة خفية، فمن باب آكد أن تسارع إلى إزالة ضرر من تسوقهم الشهوة المفضوحة إلى اتباع غير سبيل المؤمنين.

ولا تقل: كيف نميز بين الطائفتين؟ فإن الفراسة الإيمانية تتكفل بذلك، كما تكفلت فراسة المحدثين بفضح الحديث الموضوع أحيانًا، فإنك تجد عندهم مثل قول الحاكم النيسابوري في كثير بن عبد الله الناجي: **(زعم أنه يسمع من أنس، وروى عنه أحاديث يشهد القلب أنها موضوعة)** [2].

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٤٦.

(2) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٨.

فالداعية لا يترك حذره إذا لم ير الدليل الواضح وضوح الشمس، بل تكفيه شهادة قلبه للاحتياط في كثير من الأمور إذا تجنب الهوى.

*** فالقلب راء ما لا يرى البصر ***

وهذا من المعاني التي تواطأ الناس على تأكيدها، فكان ابن تيمية يقول: **(إنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)** [1].

وفي الشعر القديم:

لا تسأل المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

وفيه:

* إن الصدور يؤدي غيبها النظر *

وكان الشعر الحديث أجود في تطرقه لهذا المعنى، فقال عبد الوهاب عزام:

إن يكن في الكلام صدق وكذب ... ولدى القلب سره المكنون

فعلى الصدق في العيون دليل ... وعلى الوجه شاهد لا يمين [2]

أي :أنه شاهد لا يكذب.

هذا من مجرد النظر إلى الوجه، فإن انضاف إلى ذلك سماع كلامه كان الاستدلال أقوى، كما قال الله تعالى:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] .

بل الخبير يعرفهم في لحن السكوت أيضًا، فكم من سكوت يعرف المقابل فيه انطواءه على الغضب، وتربص الفرصة للانتقام والكيد.

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٢٧٢.

(2) ديوان المثاني/ ٣٠.

فإذا انضاف إلى الكلام فعل، فإن ما في القلب يتضح تمامًـا، وإن حلـف لك صاحبه ونفى .

ويخـبرني عـن غائـب المـرء فعلـه كفى الفعل عـما غيـب المـرء مخـبرا

وهبه دلس علينا وخدع، أفعلى الله تمر الخداعات؟

وكلا والذي برأ نسمته.

كـــل مـــستخف بـــسر فمـــــن الله بمـــــرأى

لا تـــرى شـــيئا عـــلى الله مـــن الأشـــياء يخفـــى

فالله رقيب حسيب، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الـصدور، والعاقـل من اتقاه، وترك شهواته وهواه.

نسميه تركا، وهو أفضل الجهاد، فإن رسول الله ﷺ قال: (**أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه**) [1].

ولا تستغربن ذلك، فإن قتال الكفـر لا ينفـر لـه عبـد رياسـة أو درهـم ودينار.

❊ ❊ ❊

(1) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/ ٣٦١.

obeikandl.com

17 مهاجرون يأبون التعرب

كان من خبر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه إزاء علم الشر ما قصصناه آنفًا، وعلمنا مقدار حرصه على تمييز الفتن، ومقدار تطلعه لنيل أجر النذارة لقومه، والتيقظ لفضح اقترابها المستتر بأنواع التدليس، والمتخفي بظلام الشبه.

والذي يبدو للمتأمل في تواريخ الفتن وتسلسلها أن (ظلام الشبهات هذا يكاد أن يكون هو الظرف المثالي الذي تفضل اختياره لبدء تغريرها بالمؤمنين، إذ لا يزال ظلام الحرام البين دامسا مخيفا يرهب أقل الناس إيمانًا أن يلج فيه، ولكن ظلام الشبهة أقل اسودادا، وهو بالغبش أشبه منه بالحلاكة، وربما تخللته ومضة، وخففت منه بقية خيط أبيض، فيتوهم المؤمن، فيلج، وفي ظنه أن لا خلابة ثم، حتى يستغلق الظلام من حوله فيؤوب ناجيا بمشقة وقلب راجف واجف، أو يرهب الأوبة بعد إذ قطع الظلام عليه طريق رجوعه واستوى ما هو قدامه وخلفه، ولا يبدع أن يعتاد وحشة الظلام ويألفها، ويترك التفكير بعودة.

مَثَل صريع الإغراء في ذلك مثل التاجر الماشي في سفر ومعه رأس ماله، فإن كان نبها، وقارب مصرًا آهلا حين الغروب بات فيه واستأنف مع وضح النهار، وإن لم يكن كذلك، وكان محروما حاسة الاحتياط والحذر، فإن الشفق يشدهه، ولا يفطن لما بعده من عتمة، فيظل سائرًا، حتى يتوسط القفر، ويصعب عليه التقدم أو الرجوع، فإذا كان معه لص في خطوه الأول يهيج غرامه بالشفق، ويأتيه بأبلغ

أقوال الأدباء في جماله، ويرغبه بنيله قبل اعتداء الأفق عليه ، فإن اللص ينفرد به بعد، ويسلبه ثروته.

سراجٌ وقوده التوبة

ولذلك انتهت دراسة حذيفة رضي الله عنه لمثل هذه التغريرات إلى الجزم بأن هناك نورًا إيمانيًّا في قلب المؤمن ينير له طريقه في الظلمات التي استدرج إليها، تفشل معه خطط اللصوص هؤلاء، ويستطيع الرجوع على ضوئه، فقال:

(إن في قلب المؤمن سراجًا يزهر) [1].

فهو يزهر كما يقول، أي يتألق ويسطع سناه.

والإيمان يزيد وينقص، فربما خفت السراج في ساعة جزر، فيستدرج المؤمن، لكنه سرعان ما يعود إلى الإزهار مع المد الإيماني، طالما أن أصل الإيمان أرجح فيه من أصول الشهوات، فتكون النجاة.

والعرف الإيماني يحفظ لكل معصية توبة نسبية خاصة، ما زال المؤمنون يستدركون بهن التفريط، ولكن أكثرهم ما زال يجهل التوبة من طلب الرئاسة وأمثالها من مقدمات الفتن، ففطن ابن تيمية لهذه الغفلة عن هذه التوبة، وطفق يذكرنا بأن:

(باب التوبة مفتوح، فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها، ثم يندم فيتوب من سؤاله، فيتوب الله عليه ويعينه:

إما على إقامة الواجب.

وإما على الخلاص منها) [2].

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٠/ ٢١٦، ٥٧٨ . ٢٠/ ٤٥.

(2) المصدر السابق.

وتوبة الله على طالب الرياسة بإعانته على القيام بواجبها أثمن من الخلاص منها ولا شك، لتضمنها معنى الستر وأمن الانفضاح، وإتاحتها للتائب مجال الاكتيال من أجر الإمامة الذي لا يكاد يعدله أجر.

فهذا صاحب السراج، إن لم ينر له نور عصمة أنار له نور توبة.

أما الذي أطفأت ريح الشهوات سراجه، ففي واد آخر، وشأن مختلف، واضطراب متعب، حتى أن ابن تيمية انكسر قلبه عليه لما رآه في تقلبه:

(يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق) [1].

وهذه ترديات تثير الشفقة دون ريب، وتدعونا إلى تعميم الاحتياط منها، بزيادة إيقاد أنوار الفطنة في قلوب المؤمنين، وتناوش قبس ذكي يجد الدعاة عليه هدى، ويسعى جماله بين أيديهم يدعوه الفقه باسم:

النور السابع عشر، ويزين: اتقاء الغدر

وهو نور يوقده وضوح الإشارة الشرعية والعرفية لقبح إثم الغدر بالبيعة الرضائية.

فعن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك رضي الله عنهما قالا: قال النبي ﷺ:

(لكل غادر لواء ينصب يوم القيامة يعرف به) [2].

وقد فسر ابن عمر هذا الحديث بأنه الغدر ببيعة الأمراء[3]، قاطعًا الطريق على من يريد أن يتأوله.

---

(1) المصدر السابق.

(2) صحيح البخاري ٤/ ١٢٧.

(3) صحيح البخاري ٩/ ٧٢.

وكان يقال:

ثلاث من كن فيه كنَّ عليه:

البغي: لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

والمكر: لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

والنكث: لقوله عز وجل: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠].

وهذه البيعة المعروفة الآن في الدعوة، والتي توجب حقوقا لمن بويع وبايع بالتبادل، وفقًا لشروط تفصيلية، إنما هي البيعات التي يجب الوفاء بها شرعًا، إذ المؤمنون عند شروطهم، وقد ألزم الدعاة أنفسهم بها عن رضا كامل واختيار، وقبلوا الحد من بعض حريتهم في الاجتهاد تمكينا لممارسة عمل جماعي لا تتحقق آمال الدعاة في استئناف الحياة الإسلامية وتحقيق مصالح الأمة إلا بواسطته، ولا يستمر إلا بمثل هذا الحد من حرية المشارك فيه وتفويض قادته صلاحية الأمر ومنحهم الطاعة، وكلام ابن تيمية في أول الجزء التاسع والعشرين من مجموع فتاويه عن القواعد الفقهية العامة التي تحكم شروط المسلمين في عقودهم وبيوعهم ليس فيه ما يمنع من العمل بهذه الشروط الرضائية التي يوجبها الداعية على نفسه بكامل اختياره طمعا في أجر العمل الجماعي وثوابه، ورغبة في الوصول إلى استدراك سريع لحال الأمة يبرد لذعات قلبه اليومية التي تسببها المآسي المتكررة، والفجائع المؤلمة، ابتداء بضياع فلسطين، ومجازر زنجبار وقبرص وإريتريا والفلبين، ومرورًا بصراع القوميات الدموي في البنغال وديار الأكراد، وانتهاء بخطط الماسونية والتنصير وتمكين المماليك.

والحقيقة أن ناكث البيعة يوقع نفسه في جملة أمور رديئة حتى ولو اعتزل ولم يؤذ جماعة العاملين:

* فهو واقع في إثم عدم الوفاء بالعهـد، وعـلى مقربـة مـن خـصلة مـن النفاق بغيضة، فإن المنافق إذا عاهد غدر، وأقل ما يقال في هذا العهد الـذي أعطاه : إنه آكد من النذر الذي ينذره عـلى نفـسه، والنـذر واجـب الوفـاء، يشغل الذمة بمجرد النطق.

* وهو واقع أيضا في إثم النكوث على العقب المذموم في القرآن، فلـيس هو مجرد وقوف سلبي لا يتقدم بوفـاء ولا يـزداد مـن الخـيرات، وإنـما هـو رجوع أيضًا يستهلك ما ادخره من حسنات.

* كما أنه قد دخل في سنة نافلـة تطـوع بهـا إن لم نقـل بوجـوب العمـل الجماعي، والمتطوع بسنة عليه أن يتمها كما يقول جمهور الفقهاء.

* ثم إن الناكث يقع رابعا في إثم انتصابه قدوة سيئة لغـيره يـشجع مـن بعده على تقليده، وتسويغ النكث احتجاجًا بسابقته.

نطيع الله في العاصي

ومن هنا كانت عقوبة الناكث بليغـة في العـرف العمـلي، ووجـب عـلى الدعاة أن لا يأتمنوا ناكثا نقض عهدًا، بل يجردونه مما هو فيه من العمل حتى يحدث لنفسه توبة تصدقها استقامة دهر بعد إعلانها.

لسنا نبتدع ذلك، وإنما هي قاعدة وضعها التـابعي الكـوفي سـليمان بـن مهران الأعمش، فقال:

(أعظم الخيانة أداء الأمانة إلى الخائنين).

فالمشاركة في العمل شرف وأمانة لا تنبغي لغير ملتزم، فضلا عن أن يكون رأسا ووجها، ومنعه ها هنا باب آخر من أبواب التقوى دلنا عليه الزاهد عمر بن ذر رحمه الله فقال:

(إنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه).

فمن عصى الله فينا، ينقض عهده معنا، ومن أطلق لسانه فينا، نكافئه بأن نطيع الله فيه ونصنفه في الخالفين.

أما الذين يصدقون الوعد، ويخطون خطو الصعود، فيحتلون القلب احتلالا.

أولئك إخواني الذين أحبهم وأؤثرهم بالود من بين إخواني
وما منهم إلا كريم مهذب حبيب إلى إخوانه غير خوَّان

ومكافأتهم أن نأخذ بأيديهم، لنمضي سويًّا ومعًا في طريق الأنوار اللاحب، ونمر بهم على:

النور الثامن عشر، لينبههم إلى: خطأ الاحتجاج بزلات السلف

بل نهدرها هدرًا، فإن العصمة لم تكتب لهم وإن كانوا نجباء، فإن مما أدخل الفساد على الخلق في مشاهدات ذي النون المصري الزاهد أنهم:

(جعلوا قليل زلات السلف حجة أنفسهم، ودفنوا كثير مناقبهم) [1].

وصدق والله، إذ رأينا ما رأى، كأن سمت الناكثين على مدار التاريخ واحد متشابه، وراقبنا فتنة جادل المفتتن فيها أميره، ورد عتبة، فقال:

---

(1) الغنية لعبد القادر الكيلاني ٢/ ١٨٤.

أنت لست أفضل من عـثمان رضي الله عنه حتـى تحـرم الخـروج عليـك، ولا أنـا وصحبي أفضل من فلان وفلان ممن خرج على عـثمان حتـى نتنـزه عـن فعـل فعلوه.

وهذا لعمرو الله هو الفقه الأعوج الأعرج، فإن تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولنا ما نكسب، ولا نسأل عما كانوا يعملون، وهذا المجادل لم يفطن إلى أن الخطـأ لا يـصلح أن يقتـدى بـه ، وأن الـشر لا يقلـد، وأن جمهـور المهاجرين والأنصار لبثوا في ساعة العسرة على الطاعة والولاء لعثمان، لكنه منعهم من الدفاع عنه.

ولمثل هذا اشترطوا الورع للفقيـه، كـي يريـه نـور ورعـه عـوار الحجـة الكاذبة الساترة لخطلها، وشبهوا نموذج الفقيه الفطـن بالتـابعي محمـد بـن سيرين، وذلك حين جزم مورق العجلي أنه لم ير:

(رجلا أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه، من محمد بن سيرين) [1].

فالورع لابد له من فقه يعصم صاحبه من الابتداع ومجانبة السنة، كـما أن الفقه لابد له من ورع يبعـد المتفقـه عـن الهـوى في الاجتهـاد أو الوقـوع في تغرير الزلة.

فأفعال الرجال معروفة، منها المنتصبة انتصاب المنـار، تـدعو المـشمرين لاقتداء، فيعرفونها، ومنها المائلة العوجاء.

وذو الصدق لا يرتاب، والعدل قائم عـلى طرقـات الحـق، والـشر أعـوج

فانظر، إن كان ثمة توسع في التأويل، وإكثار من الغرائـب، فـإن الفقـه يوشك أن يولد كسيحًا، وإن كان هناك الذي تعلمه من صحيحيك، وفكرة تراها ترتقي مدارجك، وتتفيأ ظلالك، فإنه فجر جديد يبشر ببزوغ:

---

(1) تهذيب التهذيب ٩/ ٢١٥.

النور التاسع عشر: الحاثّ على:

الاعتبار باستكبار الشرع لتعرُّب المهاجر

فتكون لنا عبرة وموعظة بما أخرجه البخاري في صحيحه عن التابعي يزيد بن أبي عبيد أن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه دخل مسجد الكوفة آتيا من مسكنه في البادية، فقال له الحجاج بن يوسف الثقفي:

(يا ابن الأكوع: ارتددت على عقبيك؟ تعربت؟

قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو) [1].

والحجاج يشير هنا إلى حكم شرعي صادق فيه، فإن رسول الله ﷺ نهى عن رجوع المهاجر إلى البادية والصحراء وعيشه عيشة الأعراب، ولذلك لم ينكر عليه سلمة بن الأكوع قوله هذا، وإنما بين له أنه استأذن رسول الله ﷺ باستثنائه من ذلك والترخيص له، فأذن له.

قال الحافظ ابن حجر:

(إن رسول الله ﷺ عد من جملة أصحاب الكبائر من رجع بعد هجرته أعرابيًّا).

ثم قال:

(وقال ابن الأثير في النهاية: كل من رجع بعد هجرته أعرابيًّا إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد) [2].

ويشهد لهذا الحكم أيضًا ما أخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو أحد فقهاء التابعين، أن عليًّا ابن أبي طالب رضي الله عنه كان يقول:

---

(1) صحيح البخاري ٩/ ٦٦.

(2) فتح الباري طبعة بولاق ١٣/ ٣٤.

(رجعة المهاجر على عقبيه من الكبائر)[1].

ويشهد له أيضًا ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد بسند على شرط صحيحه سوى رجل ثقة اشترطوا لتصحيح حديثه وجود شاهد متابع له، وقد شهد له من ذكرنا، أن أبا هريرة رضي الله عنه عدد الكبائر فذكر منهن:

(الأعرابية بعد الهجرة)[2].

وصرح الفقيه العلائي من الشافعية بأنها كبيرة[3].

وفي سنن سعيد بن منصور، بسند صحيح لكنه مرسل، أن النبي ﷺ نهى: **(أن يتزوج الأعرابي المهاجرة يخرجها إلى الأعراب)**[4].

فهذه الروايات تتضافر على تصحيح حكم النهي عن تعرب المهاجر وسكناه البادية، منعزلا عن مجتمع الجهاد والعمل.

ولا شك أن حكم الردة أو اعتبار التعرب كبيرة حكم خاص بجيل المهاجرين ذاك، ولكن القلب يدرك أن النهي ما كان إلا ليستمر المهاجرون، من قريش وغيرها في العمل الجماعي والفتوح وتعليم التابعين وإدارة الدولة المتوسعة.

ومن له تأمل في حال الأمة اليوم يرى تجمع الدعاة الحالي، وهجرتهم من التسيب والتفرد والضياع في خضم الحياة الجاهلية الحاضرة إلى دار الدعوة والعمل والانتظام، أشبه ما يكون بتلك الهجرة الأولى.

---

(1) كتاب الزهد لابن المبارك/ ٢٥١.

(2) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد ٢/ ٣٧.

(3) الأشباه والنظائر للسيوطي ٤١٥.

(4) سنن سعيد بن منصور جـ٣/ ق١/ ١٢٦.

فمن خرج عن الجماعة، ورضي بأن يكون سائبا، فقد أتى إلى ركن بلا قواعد، فإن رسول الله ﷺ يقول:

(من أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد،وهو من الاثنين أبعد) [1].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أذن لسلمة ﷺ بالتعرب والرجوع إلى البداوة فمن ذا الذين يأذن اليوم لهؤلاء الذين يخلعون الطاعة ويعافون الجماعة؟

لا أحد والله، ولعلها كبيرة كتلك الكبيرة.

فواقع الإسلام لا يأذن.

والفقه لا يأذن.

والقلب الحي لا يأذن.

والمروءة لا تأذن.

ولقد هاجرتم أيها الدعاة إلى مدينة الدعوة، فاحذروا أن يفسد ما أنتم فيه غضب أو هوى أو حب رياسة، أو طاعة زوجة، أو حرص على مال.

ألا أنها هجرتكم فاحفظوها.

زادكم الله ثباتًا.

وإنما عهدنا بكم أنكم...

مهاجرون تأبون البداوة...

* * *

(1) حديث رقم ١١٧ في مسند أحمد بسند صحيح.

openkandil.com